مذكرات الزعماء والأبطال: بين الوعي التاريخي والبحث عن الزمن الضائع– مقاربة أنثروبولوجية تاريخية

Memoirs of leaders and heroes: between historical awareness and the search for lost time - an anthropological historical approach

سعيدي محمد

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، msaidi45@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022-10-25 **تاريخ القبول**: 21-12-2022 **تاريخ النشر**: 2022-12-31

ملخص:

نسعى في هذه الدراسة إلى مساءلة موضوع كتابة المذكرات من قبل الزعماء والأبطال التاريخيين وذلك عبر عدد من التساؤلات المعرفية والمنهجية والموضوعاتية والتي نلخصها في معنى المذكرة وعلاقتها بالتاريخ ووظيفتها التاريخية والتعليمية والنفسية والثقافية والاديولوجية ومكانتها ضمن الحركة التاريخية العامة والشاملة للأمة.

الكلمات المفتاحية : المذكرة–الزعماء–الأبطال–الذاكرة–التاريخ–الوظيفة التاريخية

Abstract:

In this study we seek to question the issue writing memoirs by historical leaders and heroes through a number of epistemological, methodological anي thematic questions ,which we summarize in the meaning of the memorandum and its relationship to history and its historical, psychological, cultural and ideological function and position and place within the general and comprehensive movement of the nation..

Keywords: ..memorandum-leaders-heroes-memoir-history-historical function.

المؤلف المرسل: سعيدي محمد، **الإيميل**: msaidi45@yahoo.fr

1- مقدمة:

انتعش الحقل الثقافي والسياسي والتاريخي في الوطن العربي في السنوات الأخيرة بمادة كتابة المذكرات حيث عرفت ازدحاما كبيرا وغزارة لا مثيل لها ،وذلك نتيجة تهافت الزعماء والأبطال، بصورة تكاد تكون عجيبة وغريبة على دنيا الكتابة والإبداع، فقد لا يمضي يوم دون أن تطعم دور النشر في الوطن العربي سوق الكتاب والمكتبات بمذكرة لزعيم عربي أو بطل تاريخي أو سياسي.

وقد كادت كتابة هذه المذكرات أن تصبح ظاهرة ثقافية طبعت المشهد الثقافي والفكري العربي، كما أنها أصبحت ظاهرة اقتصادية حقيقية تعود على أصحابها كُتابا وناشرين بأموال كبيرة...فكم من مذكرة لزعيم أو بطل من أبطال الثورات العربية تعدى عدد مبيعاتها كل التوقعات، بل احتل البعض منها الصدارة والرتب الأولى في المبيعات المكتبية السنوية داخل الوطن العربي أو خارجه، كما نال أصحابها جوائز معتبرة، وهو أمر أهلها لإعادة طبعها وطباعتها وحتى ترجمتها إلى لغات مختلفة. ولقد لعب الإعلام والإشهار دورا كبيرا في الترويج لها محليا وحتى عالميا. ويظهر ذلك جليا في التهافت الكبير الذي أصاب القراء الذين أقبلوا على البحث عنها وقراءتها ومعرفة ما تحتويه من معلومات وأخبار حول المسيرة النضالية والسياسية لأصحابها والذين قد يشكلون الرموز البارزة في المشهد السياسي والتاريخي والثقافي العربي...

وفي اعتقادنا إن ظاهرة كتابة المذكرات وغزارتها في السنوات الأخيرة في الوطن العربي لها ما يبررها على المستوى المعرفي والثقافي والسياسي والنفسي والإيديولوجي، وهذا ما سوف نسعى إلى مناقشته في هذه الدراسة.

تحديد المصطلح:

لقد وقع بعض كتاب المذكرات من زعماء وأبطال وشخصيات سياسية في خلط رهيب في تسمية كتبهم بالمذكرات، فالبعض منها لا يتعدى السيرة الذاتية في حين أن البعض الآخر هو عبارة عن جريدة حميمية...فعلى الرغم مما يجمع هذه الكتابات الثلاثة: مذكرة- سيرة الذاتية وجريدة حميمية من حقول ثقافية ونفسية ومعرفية متشابهة، فإن كل نوع له خصوصياته ومميزاته من حيث المضمون والشكل وأيضا من حيث الوظيفة.

فإن المذكرة هي شكل من الروايات...إلا أنها تنفرد بخصيصة مميزة وهي الخصوصية، أي الجانب الشخصي فيها واللصيق بها والخاص جدا، الذي يتناول تجربة الإنسان الشخصية، ومشاهداته، وعواطفه ومشاعره

وآراءه أو أعماله التي قد يتحرج عن الإفصاح عنها والاعتراف بها في ظرف معين" (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 16)، بالإضافة إلى هذا فإن المذكرة عادة ما تكشف عن مستور أو خبئ يتصل بذات صاحبها بالدرجة الأولى، وتلقى الضوء على العلاقات المتشابكة التي تربط صاحبها بالشخصيات والتنظيمات والمؤسسات الحكومية والدستورية التي اتصل بها، كما تصور الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الجيل الذي نشأ فيه الكاتب وذلك مما قد لا يتيسر الكشف عنه بدون هذه المذكرة"... (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 17)فهي لا تهم شخصًا واحدًا بعينيه فهي تلقى الضوء على الجماعة المتفاعل معها. وهي لا تصور فضاء واحدا محدودًا ومحددا بحدود الشخصية الواحدة معزولة ومنعزلة، فدلائليتها تسعى إلى توسيع من هذا الفضاء للحديث عن الجماعة وعن الإطار الاجتماعي والثقافي والسياسي والتاريخي. ومن هذا المنطلق، فإن من القواعد الهامة التي يجب على الباحث أن يراعيها عند استفائه مادته من المذكرات السياسية معرفة موقع الكاتب في الرواية التاريخية التي يحكيها وهل كان في موقع الرؤية العيانية، أم السماع بشخصه أم السماع من شخص آخر، أم في موقع الاستنتاج، أم في موقع استفاء معلوماته من مصدر تاريخي آخر لإكمال الصورة التاريخية، فكل موقع من هذه المواقع يؤثر على الرواية التاريخية التي يرويها الكاتب تأثيرا كبيرا من الناحية الوثائقية، بمعنى أنه لو كانت الواقعة مستقاة من مصدر تاريخي ككتاب أو بحث علمي، لا نستطيع أن نصفها بأنها وثيقة لمجرد أن الذي رواها- وبمعنى أدق نقلها أو استقاها- صاحب مذكرات." (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 27_28)

تتموقع المذكرة من حيث الفاعلية التاريخية ومن حيث الوظيفة المعرفية والتربوية الوطنية أو القومية في إطار اجتماعي جماعي، فهي" لا تعبر عن تجربة ذاتية صرفة، بل عن تجربة عامة أو عن الإنسان الكلي، يموت البطل فتبقى الجماعة، ويقاتل فتفرح هي وترتاح وتستمر، إنه يقوم بالعمل الذي يؤده كل فرد، وبذلك تظهر هنا علاقة جدلية حية يستمد منها المستهلكون نسغا للحياة والخلود." (علي زيعور: 1982، ص 34) ونشير إلى أنه إذا كُتب لصاحب المذكرة ولمضمون مذكراته وأن انحرف وخرج عن هذا الإطار العام والشامل وعن الإحساس بالوظيفة البطولية الجماعية والاجتماعية والتي هو مطالب بطريقة أو بأخرى بإبرازها والاعتقاد الصادق والوطني في فاعليتها، فإن مذكرته وما تحتويه من معلومات وأفكار وأخبار وأحداث

ووقائع ومواقف لا تتعدى كونها نزوة شخصية عابرة وسطحية جاءت استجابة لضغط الأنا وغطرستها وطيشها المعتوه الباحث عن السطوة والسيطرة والسلطة الوهمية والافتراضية.

أما السيرة الذاتية، فهي محدودة من حيث الفاعلية الجماعية الاجتماعية، كما أنها لصيقة صاحبها الذي يكتبها من واقع معايشته الشخصية ومشاهدته وتجربته المحدودة عن فترة زمانية محددة، قد تشمل حياته كلها أو فترة توليه منصب ما وتمتاز عن اليوميات بأنها أكثر ثراء في المعلومات– فالسيرة الذاتية تعتمد عادة على اليوميات بالإضافة إلى وثائق أخرى تحت يدي الكاتب مثل رسائل رسمية أو شخصية أو محادثات ولكنها أقل درجة في الأهمية." (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 17)

ولقد تفنن العديد من المفكرين والمؤرخين في كتابة السير والتي تراوح موقعها من حيث الفاعلية المعرفية بين الفضاء النفسي والفضاء التاريخي والفضاء الأدبي. بل اعتبرها البعض أنها تاريخ وأدب، فهي تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد له أهميته كموجه للأحداث في عصره أو جماعة لعبت في تاريخ الشعب أو الإنسانية دورًا ذا أثر...وهي أدب من حيث كونها انطباعات مؤلفها، وتتلوّن بثقافته ووضعه الاجتماعي وموقفه من الحياة، أي أنها ليست عملا علميا تاريخيا يعتمد على الوثائق الثابتة القيّمة المحققة الوجود." (فاروق خورشيد ومحمود ذهني: 1980، ص 33.)

ومهما يكن من أمر، فإن السيرة غير المذكرة...فالسيرة أقل عمقا وصرامة ومسؤولية والتزام عن المذكرة.

قد تعتمد بعض الشيء على السيرة الذاتية بل قد تشملها أحيانا تتعداها إلى أشياء أخرى تتعدى الطرح السطحي والشخصي لصاحبها لتشمل الجماعة وتاريخها وتاريخ وطنها.

أما الجريدة الحميمية أو اليوميات، فهي لا تتعدى الإطار الانطباعي الشخصي جدا، حيث يدوّن فيها صاحبها تجربة يومية أو حادثة يومية عابرة في لحظة وقوعها...فهي تعبير عن إحساس في اللحظة ذاتها... وقد يدوّن فيها أشياء حميمية شخصية وخاصة، ويسعى إلى الحفاظ والاحتفاظ بها كذكرى شخصية...وقد تغلب على هذه الكتابات الذاتية والعاطفة...وتفتقد إلى المساءلة والتحليل والمناقشة. فهي حالات نفسية وتجارب ذاتية أراد صاحبها تخليدها لنفسه وليس للآخرين...غير أنّها لمحدودية فاعليتها قد تكون مادة خصبة لتطعيم السيرة الذاتية والمذكرة.

كتابة المذكرات والوعي التاريخي:

لعل ما يمكن الإشارة إليه منذ البداية، هو أن الكتابة التاريخية قد طغت أكثر فأكثر في كتابة المذكرات، وأن موضوع التاريخ السياسي للوطن العربي وأقطاره–امتاز بالحضور القوي والمكثف...كما أن

كتاب هذه المذكرات بصورة عامة هم زعماء وأبطال وشخصيات سياسية كانت قد خاضت وشاركت في الثورات والحروب التي عرفتها الأقطار العربية واستمروا في النشاط والعطاء حتى بعد استقلال هذه الأقطار، حيث تقلدوا مناصب حكومية رفيعة المستوى...كما أننا لا ننكر ولا نتنكر لمذكرات أخرى كتبها زعماء وأبطال ثوريون الذين التزموا الصمت والعزلة وربما حتى التهميش بعد استقلال أوطانهم...

إن ما عرفته بعض الأقطار العربية من حرية التعبير وممارسات ديموقراطية وحرية الإبداع وحرية الرأي واحترام الرأي المختلف والمخالف...شجع بعض الزعماء السياسيين والأبطال الثوريين ليقولوا ما كان ممنوعا قوله في مرحلة من مراحل تاريخ المجتمعات العربية...أو أنهم أحسوا وأدركوا أن المواطن العربي قد تحرر في ثقافته وفي فكره وأصبح يملك الطاقات المعرفية والفكرية من أجل تقبل وقراءة واستيعاب ما كان ممنوعا قوله سابقا، أو ما كان يخاف أن يفهم فهما خاطئا أو يؤول تأويلا خطيرا...فلقد أدرك هؤلاء الزعماء والأبطال أن الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية أصبحت مناسبة لمثل هذه الكتابات ولا بد من استثمارها وعقد العزم من أجل الحديث عن تجاربهم وتدوينها وطبعها وإخراجها في كتب ومجلدات...وهم في ذلك يعتقدون تمام الاعتقاد أن مذكراتهم محملة بأخبار ومعلومات وحقائق ووقائع من تاريخ الشعب وتاريخ الوطن، فسوف يقولون ما لم يقله المؤرخون أو أنهم سوف يروونه بطريقة أحسن وأصدق لأنهم عاشوا وعايشوا الأحداث والوقائع عن قرب، فهم صانعوها بامتياز أو مشاركون ومساهمون في صناعتها، يتحدثون عنها ويروونها من الداخل وليس من خارجها... .

تعد الكتابات التاريخية والسياسية حقلا ملغما، ومن ثمّ فإن التنقل فيه وعبره يتطلب التحلي بالمعرفة التاريخية وباليقظة والحذر المنهجي والسير رويدا رويدا لتأكد من أمن وسلامة المكان...فالألغام التاريخية والسياسية مرشحة لانفجار في أية لحظة من لحظات التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي للشعوب، وقد تكون نتائجها صعبة وخطيرة ووخيمة... .

إن الكتابات التاريخية بقدر ماهي نور ونعيم فهي أيضا نار وجحيم...نور يضئ العتابات المظلمة من تاريخ الشعوب، ونعيم بنعمة البطولات والأحداث والمعارك التي خاضها أبناء الشعب من أبطال وزعماء ومجاهدين وشهداء من أجل نعمة الحرية والاستقلال والكرامة وسيادة الشعوب مع شيء من الاحترام والاعتراف وتقدير لتضحيات الرجال...فهي نار قوية ومحرقة أن هي نهجت نهج الكذب والتزوير

والتزييف الحقائق التاريخية وسرد أخبار ومعلومات خاطئة وخطيرة...قد تكون سببًا في ميلاد حروب ومعارك أخرى، حروب النعرات القبلية والعرقية، وحروب المغالطات التاريخية وتصفية الحسابات والاعتداءات على كرامة وشرف الأشخاص...فكم من كاتب المذكرة قد أصيب بهاجس تزييف الحقائق التاريخية ليدنس محطات من تاريخ الشعوب وأبطالها وبطولاتها...وكم من كاتب مذكرة اصطنع أحداثا ونسبها إلى نفسه أو إلى قريبته وقبيلته تمجيدا وتعظيما. فقد يبدع أحداثا من خياله الخاص لم تقع أبدًا، أو يتحدث عن أحداث ووقائع لم يشارك فيها أبدا، أو يسكت عن حقائق يعرفها تم ينكرها لأنها في غير صالحه.

وقد تصبح مثل هذه الكتابات جريمة وذنبا وجحيما يحترق فيها الكاتب أولا تم يقود جزءً من ذاكرة شعبه ووطنه معه إلى الجحيم كذبا ونفاقا وافتراء. وذلك يعود أصلا إلى غياب الوعي التاريخي والمعرفة التاريخية والأخلاق العلمية التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية، فالكتابة التاريخية ليست إبداعا أدبيا خياليا، وأن الكلمة في النص التاريخي ليست بريئة ولا تكتب اعتباطيا، فهي تتكون ثم تولد في رحم جريح، وقد تسبق ولادتها تخمينات وتأملات وتحضيرات كبيرة حماية وصيانة وحفاظا عليها وعلى سلامة الرحم الشعبي والوطني الذي احتضنها وألهمها المادة والروح، والمضمون والشكل...إن الكاتب للنص التاريخي الصادق والأمين لا يمتلك القدرة أو حتى الرغبة في التلاعب بالكلمات وتعويض واحدة بأخرى بدافع ترفيهي وجمالي ونفسي وفني ...فالكلمة التاريخية هي سيدة نفسها من حيث الدال والمدلول فهي تفرض نفسها بكل هدوء وصمت معرفي بعيدا عن عنف الكتابة وصخبها...ففي النص التاريخي كل العناصر اللغوية حية تتحرك، فقد تصيح وتثور وتنطق وتتألم من سوء الكتابة وسو القراءة والتأويل. وعلى هذا الأساس، مهما يكن الموقع الإبداعي لكاتب المذكرة، ومهما تكن قيمة المعلومات التاريخية التي يرويها ويتحدث عنها، ومهما تكن رتبته ومنزلته السياسية والتاريخية والاجتماعية، فإن نص مذكراته لابد وأن يخضع لقراءة نقدية وفق الأسس المعرفية والمنهجية والأخلاقية لعلم التاريخ...ومن ثم فلا بد وأن يدرك تمام الإدراك أن كتاباته وإن هو أراد لها النزعة التاريخية والسياسية وتوجيهها توجيها تعليميا وتربويا للأجيال الحاضرة والمستقبلية والتي لا تعرف الثورة فلا بد وأن يكون لديه– أي كاتب المذكرة–" قدر من نكران الذات والتجرد من الأهواء وتسجيل التجربة وتوصيلها للأجيال بدون زيف ولا زيادة ولا نقصان، فالثورة مرحلتان: مرحلة فعل الثورة ومرحلة مراجعة الذات في الفعل الثوري...بغية تعليم الأجيال وتجريعهم تجربة الثورة كاملة حلولها ومرّها." (محمد الطاهر العدواني: 1998، ص 33)

مذكرات الزعماء والأبطال :بين الوعي التاريخي والبحث عن الزمن الضائع مقاربة أنثروبولوجية تاريخية

تعتبر عملية كتابة المذكرات عملية صعبة ومعقدة، وبالتالي فهي مرهونة باتجاهات ومواقف وعقليات وسلوكيات أصحابها الزعماء والأبطال من حيث تكوينهم البيولوجي والنفسي والاجتماعي والثقافي والسياسي...فليس كل زعيم أو بطل ثوري مؤهل لكتابة مذكرته أو لأن يكتب له مذكرة خاصة به، فالكثير من هؤلاء لا يملكون مادة- تجربة حياتية- قد تكون صالحة لأن تروى وتدوّن، فلقد عاشوا حياة نضالية وسياسية عادية لا تتعدى النشاط اليومي أو المهني العام، في حين أن البعض الآخر عاش حياة مليئة بالأحداث والتجارب والتي قد تكون شهادة حية وصادقة عن المرحلة النضالية أو السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية التي عاشها وعايش أحداثها ووقائعها...في حين أن هناك نوع ثالث من هؤلاء الزعماء والأبطال المولعين بكتابة المذكرات، فإنهم مصابون بتضخم الأنا وبنرجسية تاريخية وسياسية لا تحدّها حدود، وأن عقليتها غير سليمة، ولا يمكن أن تكون عقلية راغبة في كتابة التاريخ...بقدر ما هي عقلية خصومة وتنافس وأحقاد... وعندما تكون مثل هذه العقليات لا تزال مسيطرة، وهي بلغة بسيطة عقلية تصفية الحسابات، نعرف أنها في نفس الوقت ترغب في إظهار أمجادها في مواجهة ضعف الآخرين." (محمد الطاهر العدواني: 1998، ص 34)

فالكتابة التاريخية لا تكتب عفوية، ولا تكتب اعتباطية، وليس كل من يحاول كتابة مذكرته جديرا بلقب المؤرخ، ذلك أن المؤرخ الحقيقي والمحترف والعلمي والعالم يمتاز بمواصفات معرفية ومنهجية وأخلاقية أساسية وثابتة تؤهل بل وتفرض عليه أن "لا يكتب ولا ينتحل ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان، ولا يخفى الوقائع والحقائق التي لا يعرفها غيره في بعض الأحيان والتي لا ترضيه أو ترضي قومه." (حسين عثمان: 1970، ص 18)

إن الكتابة التاريخية هي أولا وقبل كل شيء معرفة ووعي ومسؤولية وأخلاق وجرأة وشجاعة ونزاهة والتزام بالحقيقة سواء أكانت لك أو عليك، إن التحلي بالحيطة والحذر واليقظة إزاء مذكرات الزعماء والأبطال والشخصيات السياسية باعتبارها أعمالا ونصوصا ووثائق تاريخية له ما يبرره على المستوى الابستمولوجي والتاريخي وذلك يعود أصلا إلى صاحب المذكرة نفسه وصاحب الرواية وسرد الأحداث والوقائع والذي في أغلب الحالات يفتقد إلى الآليات المعرفية والمنهجية والطرق البيداغوجية والتعليمية التاريخية، فلا يكفي صناعة الحدث التاريخي أو المشاركة فيه أو معرفة تفاصيله بحكم المشاهدة والمعاينة من أجل أن تكون مؤرخا

أو عالما في التاريخ باعتبار أن التاريخ رواية، لأنه تاريخ وقائع وأحداث، فهو عبارة عن ستار يتخفى وراءه الدور الحقيقي للتاريخ الذي تدور أحداثه في الكواليس وفي البنى الخفية التي يتوجب الكشف عنها وتحليلها وتفسيرها، فهذا التاريخ يتوقف عند سطح الأحداث، وردها لسبب واحد، بينما يظل المهم هو النداء من أجل تاريخ عميق وكلي، يجب تحطيم هذا التاريخ الفقير لأنه تاريخ مزيّف ومضلل". (عبد اله عبد اللاوي: 2009، ص 59)

ولعل أهم الأسئلة التي تضغط على قارئ المذكرات والمهتم بها في الوطن العربي هي:

1-لماذا أقبل وتسابق الزعماء والأبطال والشخصيات السياسية في الوطن العربي على كتابة مذكراتهم في أزمنة متقاربة من الزمن الحاضر؟

2-ما هي المساحة التاريخية المخفية التي يسعى هؤلاء إبرازها للقارئ العربي بعد مضي مدة من زمن الثورات والحروب العربية؟

أشارنا سابقا، أننا وبكل وعي وتأكيد، لا ننكر ولا تنكر لقيمة المذكرات وللدور الريادي لأصحابها في الحديث عن بعض المحطات الشخصية والجماعية من تاريخ الشعوب وتاريخ الأوطان وتاريخ المعارك وتاريخ الشخصيات السياسية والتي كادت أن تفلت من الكتابات التاريخية العلمية والرسمية وحتى من الذاكرة التاريخية الشعبية الجماعية...يعود هذا الفضل إلى هؤلاء كتاب المذكرات الذين يحملون ويحتفظون في صدورهم وفي ذاكرتهم العديد من أسرار الثورات العربية وحروبها وأنظمتها السياسية.

البعد النفسي:

لا يمكن بأي حال من الأحوال النظر إلى كل المذكرات وفق نفس النظرة ووفق نفس المقاربة وبالتالي محاولة تصنيفها من حيث القيمة ومن حيث المقاصد في نفس التصنيف وفي نفس الرتبة.

إن القراءة والإلمام بكل مذكرات الزعماء والأبطال والشخصيات السياسية في الوطن العربي عمل يتعدى طاقاتنا وذلك لعددها الكبير والهائل واللامحدود... (سامي بركاوي وحسن رمعون، 2006، ص ص: 159-179) وقد لا يتسع هذا المقال وهذا المقام لسرد عناوينها أو قراءة ودراسة مضامينها...فهي عديدة جدة، وقد مست حقول معرفية متعددة ومختلفة من تاريخ وأدب وفكر وسياسة واقتصاد، حيث ارتبط مضمونها بصورة مباشرة أو غير مباشرة بطبيعة التخصص والانتماء المعرفي والثقافي لصاحبها...ولكل واحد مقاصد ونوايا دفعته لكتابة مذكرته والتي ترجم حالات نفسية خاصة بصاحبها، فهو يريد أن يتمظهر بالمظهر المتعالي الطاهر العفيف البارئ السليم العارف الذي يمتلك الحقائق التاريخية...إن المذكرة

التاريخية، مهما كان موضوعها ومهما كانت قيمة المعلومات التي يريد صاحبها إيصالها إلى القارئ فهي ليست بريئة، ولم تكن كذلك أبدا، فلقد كتبت في ظروف زمنية وتاريخية بعينيها لأنها تريد أن تفصح وتقول أشياء، وتريد أن تكشف عن المسكوت التاريخي الذي ظل يقلق صاحب المذكرة وظل محتفظا به لمدة من الزمن... ولمعرفة أسراره والقبض على دلائليته لا بد وأن تتعدى قراءة المذكرة المستوى السطحي إلى المستوى العميق ومساءلة دلائليتها وسياقاتها وخلفياتها التاريخية والنفسية، لأنه في أغلب الحالات لقد تمت ولادتها في زمن نفسي قلق ومضطرب، وهو الزمن الحاضر، زمن الضياع وفقدان البطولة الرمزية وفقدان الزعامة، زمن التوترات، فكاتب المذكرة يعيش لحظات من غياب الانسجام النفسي والاجتماعي...لقد تخلت عنه الجماعة، فيفر ليختبئ في الزمن الماضي، زمن الزعامة والبطولة والرجولة والثورة والقوة والوجود... فقد تضمن له المذكرة بعض من هذا الزمن، وبعض من الأمن والاطمئنان والقوة النفسية، فيسعى إلى أن يعيش زمنه الحاضر زمن السقوط بشيء من الزمن الماضي زمن الريادة...يعيش لحظات استرجاعية للزعامة والبطولة والأيام الخالدة... ويسعى بطريقة شعورية أو لاشعورية إلى التفعيل الرمزي لهذه اللحظات من الماضي التي سوف تلهمه وتلهم مخياله بعض من القوة والسلطة لمواجهة نكسات الزمن الحاضر الذي تنكر له ولبطولته ولتضحياته. فهو يريد أن يستمر في تخليد اسمه وزعامته حتى وإن كان افتراضيا... فالمذكرة قد تشهد على ذلك وقد تضمن له الاستمرارية وتلهمه القوة لمواجهة الزمن الحاضر الذي أصبح بالنسبة له مرادفا للشك وللهزيمة ولفقدان البطولة والزعامة والاعتبار والسلطة الرمزية والشرعية الثورية والتاريخية. فهو يكتب المذكرة من أجل أن يتذكر ويذكر، وكما يدل على ذلك اسمها فهو يتذكر زمنه الماضي البطولي ويسعى إلى أن يذكر بها جماعته التي تنكرت له... فالمذكرة ليست كتابا يكتبه زعيم أو بطل أو شخصية سياسية. سواء أكان هو كاتبها أم كتبها له أو عنه الآخرون، فهي صرخة قوية وألم عميق وكبير، وصارخ، صادر عن أنا جريحة والتي قد أبلت بلاء حسنا في وقت من الأوقات من أجل هذا الشعب ومن أجل هذا الوطن. والان تتصارع وتعيش لحظات من اليأس والضياع والضعف النفسي وكثرة حاجاتها والتي أثقلت كاهلها النفسي والاجتماعي...فهي تعاني من ثقل حاجات متعددة ولعل أهمها:

-الحاجة للرد على مشاعر الضعف وقلق الدونية والقلق الذي يولّده الأنا الأعلى.

-الحاجة لإعطاء معنى ومنزلة للذات، تكون فيها محترمة محبوبة منتجة.

-الحاجة للكمال والحاجة الاكتساب الإعجاب من الآخرين ولتعدم التعرض للهجوم.

-الحاجة للقيادة، فالدافع للتسلط أو للمساهمة في مسار الإنسانية عصابي" (علي زيعور: 1982، ص 21)

فإذا كانت كتابة المذكرة هي وليدة معاناة نفسية ونتيجة فقدان الإحساس بالقيمة الاجتماعية وبالاعتبار والتقدير والاعتراف ونتيجة صعوبة وعدم تحقيق بعض الحاجات وبعض الرغبات لدى البطل أو الزعيم، فإن الإحساس نفسه والحالة نفسها تطبع الفضاء النفسي لقارئ المذكرة الذي يتهافت ويلهث من أجل الحصول عليها وقراءتها والبحث عما فيها من قيم ومعلومات وأخبار وأحداث ومواقع ومواقف وشخصيات وأبطال وبطولات. إن قارئ المذكرة والمدمن على قراءتها يتحرك تحت ضغط حلم يراودها وهو يبحث دوما وأبدا عن البطل وعن الزعيم المنقذ للشعب وللوطن. فيرسم لنفسه مسبقا أحلاما وصورا لهذا الزعيم ولهذا البطل صاحب المذكرة... ففي اعتقاده أن كتابة المذكرة لا تكون إلا من بطل أو زعيم، فهو بما يرسمه لهذا البطل أو الزعيم الافتراضي أو الحقيقي هو في حقيقة الأمر ما يحلم به هو لنفسه وما يطلبه أن يكون فيه، فالبطل هو الصورة التي تريدها الذات للذات من حيث التكامل، إنه تجسيد أحلام وتجسيد التطلعات إلى الخلاص وإزالة ما لا نوده واسقاط ما نوّده، وبكلمة أخرى، فإن مادة البطل موجودة في نفوسنا، وهو فعلنا الإرادي واللاإرادي الواعي واللاواعي: نمحو من نفوسنا ما يختلف مع البطل، ونمحى من البطل ما يختلف مع نفوسنا، البطل قيمة وصورة كاملة تمتص المشاعر المثالية التي عرفتها الإنسانية وتتشكل فيها الخبرات، إنه تعبير عن الأمل القادم وعن إمكانية الخلاص. (علي زيعور: 1982، ص 21)

إن تهافت القراءة على مذكرات الأبطال والزعماء والشخصيات التاريخية هو شكل من أشكال البحث عن الزمن الضائع، زمن الأبطال والبطولات والمعارك القوية والثورات المجيدة التي أثمرت الاستقلال والحرية والكرامة والسيادة...

ومهما يكن من أمر، فإن نص المذكرة، وإن كان يبدو ظاهريا ودلاليا ورمزيا بحثا عن الزمن الضائع للأنا البطولية والتي كانت:"أمس- هناك"-فهو أيضا بحث عن مكان وعن مكانة في الزمن الاجتماعي الجماعي والسياسي والثقافي والتاريخي الحاضر:"الأن- هنا". وكأن- الأنا- كاتب المذكرة البطل والزعيم الذي كان بالأمس- هناك (الثورة أو جهاز الدولة) فلم يبقى كذلك أو فقد المكانة والرتبة في الزمن الحاضر الزمن الاجتماعي الواقعي المعاش، فهو يسعى ويريد أن يعلن مرة أخرى عن وجوده وعن استمرار بطولته التاريخية والسياسية، يريد أن يحتفظ وإلى الأبد بسلطته الرمزية وبقوة أبوته التاريخية وشرعية وجوده الماضوي...

فالزمن الاجتماعي، الآن–هنا– مدين له ومطالب منه بالاعتراف والتقدير ودفع ثمن البطولة وثمن التضحية... .

فكتابة المذكرة ليست بريئة وليست عديمة الوظيفة النفسية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية، فلقد كتبت في أغلب الحالات في أجواء مأزومة... وكأن كتابتها جاءت نتيجة ضغوط... فهي محملة بكثير من معاني الخوف والأسى والحيرة والتأسف ... حيث يعتقد صاحبها البطل والزعيم الذي كان، أنه في خضم الأحداث والتغيرات الاجتماعية فقد زعامته وبطولته، فهو يبحث على الزمن البطولي الضائع، ويسعى إلى استرجاعه ضمن الصيرورة الزمنية الاجتماعية الواقعية في الزمن الحاضر... إن الدلائلية الرمزية لنص المذكرة هي في جانبها النفسي سعي من أجل تأسيس جديد وتأصيل وجودي للأنا التاريخية والسياسية الفردية والشخصية لكاتب المذكرة كحدث بطولي وكحديث تاريخي في الزمن الحاضر: الآن هنا كما كان أمس هناك.

الوظائف، الخلفيات والأبعاد.

تتحدد قيمة ومصداقية المذكرة بما تؤديه من وظائف سواء على المستوى الشخصي أي خاصة بالكاتب نفسه أو على المستوى الجماعي أي خاصة بالجماعة التي يقصدها صاحب المذكرة... ويتجلى ذلك من خلال الوظائف والأبعاد والخلفيات التالية:

1– الوظيفة الدفاعية، وتتمثل هذه الوظيفة في تلك الرغبة القوية لصاحب المذكرة من أجل الدفاع عن نفسه وتبرئة ذمته من أخطاء أو من اتهامات وجهت له سواء أيام الثورة كمناضل وكبطل أو أيام الاستقلال كمسؤولي في الدولة وفي أجهزة الحكم... فيسعى في مذكرته إلى رواية أحداث ووقائع تساعده على صناعة هوية جديدة تماشيا والمنطق الأخلاقي الشعبي، فينسب إلى نفسه أعمالا وصفات حسنة حماية لنفسه من غضب الشعب وثورته والانتقام منه. لقد كثرت مثل هذه المذكرات في المدة الأخيرة التي عرف فيها الوطن العربي أحداثا وتغيرات جذرية عميقة أسقطت على إثرها حكومات وأنظمة سياسية عاتية. حيث ثار الشعب برمته على هذه الديكتاتوريات التي أثقلت كاهل المواطن العربي قمعا وقهرا وبطشا وتعذيبا وتخلفا... وقد ربط الوعي الشعبي العربي الثائر هذه الأنظمة بعدد من الزعماء والأبطال الذين أوجدوها وضمنوا لها شرعية الوجود وأصبحوا جزء لا يتجزأ منها... لقد ثار الشعب العربي وانتفض انتفاضة لم

يعرفها من قبل في تاريخه الطويل... فأسقط هذه الديكتاتوريات وتابع رموزها، فمنهم من قتل ومنهم من اعتقل وسجن ومنهم من فر إلى الخارج ومنهم من لاذ بالصمت... ومهما يكن من أمر، فإن الإرادة الشعبية العربية قوية وعاقدة العزم على المتابعة والملاحقة والمحاكمة... لقد سكن هاجس الخوف من الانتقام الشعبي عددا من رموز هذه الأنظمة ومن ثم كل واحد يحاول أن يقدم لنفسه وجها جديدا وحسنا... فوجد في كتابة المذكرات وسيلة ناجحة من أجل تبرئة ذمته وإعلان قطيعته عن هذه الأنظمة ماضيا وحاضرا، بل وجد فيها فرصة لإثارة قضايا تاريخية وسياسية جديدة من تاريخ الشعب وتاريخ الوطن كان قد تورط فيها غيره،، في حين يقدم نفسه في صورة البريء الذي لم يرتكب أي ذنب أو أخطاء في حق الوطن وفي حق الشعب...

وفي هذا الصدد، نقول إذا كانت فلسفة كتابة المذكرات هي بحث عن الزمن الضائع، فإن في مثل هذه الحالات وفي مثل هذه الأوضاع والوضعيات فهي بحث عن سلامة الذات والدفاع عنها من انتقام ومن ثورة الشعب ضد الأنظمة الديكتاتورية والتخلص من رموز الفساد...

2- الوظيفة التصحيحية: يسعى كاتب المذكرة إلى تصحيح بعض ما ورد في الكتابات التاريخية أو حتى في مذكرات زعماء وأبطال وشخصيات سياسية... فيسعى إلى تصحيح معلومات وأخبار عن أحداث ووقائع كان قد رواها غيره خطاء... فهو يرى أنه من واجبه الثوري الوطني أن يصون ويحمي هذا التاريخ من انزلاقات وانحرافات التي وقع فيها المؤرخون قبله... سواء بطريقة مقصودة والناجمة عن غياب الروايات التاريخية الصحيحة والسليمة وغياب الشهادات الصادقة وغياب الوثائق التاريخية الرسمية... وفي هذا الصدد نشير إلى أن بعض المذكرات هي شهادات حية وناطقة عن أحداث ومواقع قد شارك فيها كاتب المذكرة ويمتلك من المعلومات الصحيحة ما لم يمتلك غيره...

3- الوظيفة التكميلية التكاملية: يسعى في هذا الصدد كاتب المذكرة إلى إضافة معلومات وأخبار لم يذكرها الذين سبقوه في روايتها وذلك بسبب من الأسباب حيث توقفوا عند محطة معينة من تاريخ بعض الأحداث وبعض الوقائع... فهو يريد أن يواصل المسيرة والحديث التاريخي من خلال ما يمتلكه من معلومات وأخبار... وكم من مذكرة تكمل سابقتها... وخاصة إذا كان كتابها عاشوا فترات وأحداثا تاريخية نفسها أو متقاربة في حدوثها... فإذا كان كل حدث تاريخي مرتبط بسابقه ويلاحقه، فإن المذكرات الصادقة تستدعي بعضها البعض وتتعاون وتتكامل من أجل قول تاريخي متواصل ومستمر.

4- الوظيفة التربوية والتعليمية: يسعى صاحب المذكرة إلى عرض تجربته النضالية والسياسية وجعل منها دروس وتوجيهات والنصائح للأجيال الناشئة والتي لم تعرف الثورة ولم تعش أحداث الحرب وأثارها وصمود الشعب ومعاناته ... فيعتقد كاتب المذكرة أن تجربته ومسيرته النضالية والسياسية تحتوي قيما تربوية وأخلاقية يتمنى أن يتحلى بها الشباب، ونشير في هذا الصدد أن عددا من مذكرات الزعماء والأبطال ورجال السياسة هي كتب في التربية والخلاق والسياسة والثقافة والتاريخ. وقد يستفيد منها قارئها وذلك لغزارة القيم التي تحتويها من تضحية وصمود والتزام وعمل صالح وأخلاق حميدة وغيرها من القيم التاريخية والاجتماعية والثقافية الوطنية التي يريد صاحب المذكرة نقلها إلى أبناء جلدته وأبناء وطنه...

المعيقات:

ومهما يكن من أمر. فإن لكتابة المذكرات التاريخية قيمة لا يمكن بأية حال من الأحوال نكرانها أو الشك فيها أو الإساءة إلى أصحابها جملة وتفصيلا... فلقد قدمت لكتابة التاريخ مادة خصبة وغزيرة حيث وجد فيها المؤرخون معلومات وأخبار مهمة ساعدتهم على سد وملء الفجوات والفراغات في غياب الوثائق التاريخية الرسمية... غير أن الواقع المعرفي والأخلاقي والتاريخي يفرض بعض من الحذر واليقظة في التعامل مع المذكرات من حيث المصدرية والمرجعية العلمية والتي يشيع منها بعض ما قد يسيء إلى التاريخ الوطني وإلى تاريخ بعض الشخصيات التاريخية وفي اعتقادنا يعود ذلك إلى سببين اثنين:

1- سبب إرادي مقصود.

2- سبب لاإرادي وغير مقصود

أما السبب الإرادي المقصود، فهو يعود أصلا إلى تلك النية المبيتة التي يقصدها كاتب المذكرة حيث يعتمد الكذب والتزوير وتزييف الحقائق التاريخية. ويعتمد أيضا أسلوب التجريح والتشنيع والتمثيل ببعض الأشخاص والشخصيات التاريخية والثورية. فيبدع أحداثا ووقائع لم تقع البثة أو يتخيل معارك وبطولات هي من وحي خياله الخاص أو يتنكر لحقائق. أو ينسب إلى نفسه بطولات مزيفة وكاذبة .فأمام هذا النوع من المذكرة إن الرؤية النقدية الثاقبة والصارمة واليقظة والحذر والحيطة أمور ضرورية لابد وأن يتحلى بها القارئ .لأن تبرير الأخطاء وانتحال الأدوار وتشويه الخصوم وتمجيد الذات و أنه يوجد بدرجات متفاوتة

في الروايات، إلا أنه يزيد في المذكرات ويؤدي إلى كثير من مسخ الحقائق ويؤدي بالتالي إلى مزيد من الارتياب في أمانة القول". (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 17)

أما السبب اللاإرادي وغير المقصود، فقد يتمثل في كون كاتب المذكرة أو من يروي ويكتب له، أصيب ببعض الأمراض قد تؤثر سلبا على سلامة ذاكرته من الناحية العضوية البيولوجية أو النفسية، الأمر الذي قد يؤدي به إلى النسيان وصعوبة التذكر والاستذكار (سهير زكرياء قودة: 1996، ص ص 146-151) أو سرد حقائق بصورة مغلوطة أو مشوهة ومشوشة، وقد يسيء إلى التاريخ ويفسده وبدون أن يشعر يقدم أمورا يعتقد أنها حقائق تاريخية وقد يقرأها العام والخاص بل قد يعتمدها المؤرخون على أساس أنها من راوٍ عاش الأحداث والوقائع...

ويمكن إضافة إلى عامل المرض بالنسبة لكاتب المذكرة عامل آخر لا يقل أهمية وهو عامل السن حيث قد يكون هذا البطل أو الزعيم أو الشخصية السياسية متقدمة وطاعنة في السن، وتفصلها عن الأحداث والوقائع المروية ومادة المذكرة مسافة زمنية كبيرة قد تتعدى نصف القرن وهي مدة تاريخية طويلة لا يستطيع أن يتذكرها بسهولة وبسلامة شخص تعدى سنّه الثمانين أو أكثر.

إن تقدم في السن والمسافة الزمنية التي تفصل زمن كتابة الأحداث وزمن وقوعها قد يؤثر سلبا على سلامة المذكرة وسلامة ما تحتويه من معلومات وأخبار في غياب الوثائق التاريخية المكتوبة والرسمية التي يمكن الاعتماد عليها في كثير من حالات كتابة التاريخ الذي غلب عليه الطابع الشفوي. "فإن كتابة الواقعة التاريخية بعد سنوات من وقوعها وبعد أن أصبحت ذكرى، يؤدي إلى الكثير من الخلط والأخطاء وبالتالي يؤدي إلى مزيد من الارتياب في دقة القول" (عبد العظيم رمضان: 1985، ص 18)

الخاتمة:

تعد ظاهرة كتابة المذكرات حالة صحية جيدة في حياة المجتمعات العالمة والمثقفة والواعية بتاريخها وبطولاتها وأبطالها وزعمائها... كما تترجم هذه الظاهرة الحالة الحية والديناميكية لزعماءها وأبطالها ورجالاتها السياسية... فكل صوت من هذه الأصوات يحس بقيمة تجربته النضالية والسياسية في مرحلة زمانية من التاريخ الوطني، فيريد أن يخلدها في ذاكرته وفي الذاكرة الجماعية... هذا من جهة ومن جهة أخرى، أن كل صوت من هذه الأصوات يحس بشيء من المسؤولية التاريخية والسياسية إزاء شعبه ووطنه... وأن الكتابة هي شكل من أشكال المشاركة في كتابة وتدوين هذا التاريخ... غير أننا لا يجب أن نعتقد أن تحقيق هذه الغاية الوطنية عملية سهلة وبسيطة وبريئة. فكم من كاتب المذكرة قد ارتكب جرائم لا تغتفر

بمذكرته وبما ضمنته من كذب وتزوير وتزييف وتشويه وتحريف وسب وشتم وإساءة إلى الوطن وإلى بعض الشخصيات... .

ومهما يكن من أمر، فلا يمكن أن ننكر القيمة الإنسانية والأخلاقية والفكرية والأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية لعدد من المذكرات والتي أبلى أصحابها بلاء حسنا في كتابتها وتقديمها نقية صافية طاهرة للقراء الذين يتهافتون على قراءتها والاستفادة منها ومما تزخر به من قيم... .

فكتابة المذكرة هي أولا وقبل كل شيء وعي وفكر وثقافة وتاريخ وأخلاق والتزام ومسؤولية.

المراجع:

1_ عبد العظيم رمضان(1985)مذكرات السياسيين والزعماء في مصر 1891-1981، طبعة الوطن العربي، ط2،

2- علي زيعور(1982) قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية المستعلي والأكبري في التراث والتحليل النفسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1.

3- فاروق خورشيد ومحمود ذهني(1980) فن كتابة السيرة الشعبية دراسة فنية نقدية للسيرة الشعبية عنترة بن شداد، منشورات (اقرأ) ط1.

4- محمد الطاهر العدواني(1998)حول المنهج العلمي لكتابة تاريخ الثورة، في (كتاب جماعي: "المدرسة التاريخية الجزائرية"، مطبعة وسام براس للإعلام والنشر والإشهار، الجزائر، ط1

5- حسين عثمان(1970) منهج البحث التاريخي، ط2. دار المعارف، مصر.

6- عبد اله عبد اللاوي(2009)ابستمولوجية التاريخ، مداخل منهجية في صناعة المعرفة التاريخية، طبعة ابن التديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1.

7-سامي بركاوي وحسن رمعون(2006) طبعة مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران.

8- سهير زكرياء قودة(1996) الذاكرة والاستذكار الجيد: في مجلة المنهل، العدد 529، المجلد 57، العام 61 يناير- فبراير.

- ننوه بالعمل العلمي التاريخي والسياسي الذي قام به الدكتور عبد العظيم رمضان في كتابه القيم والمفيد: مذكرات السياسي والزعماء في مصر 1891-1981، لقد جمع وقرأ عددًا كبيرا من المذكرات وأورد عناوينها

بطريقة علمية، كما درسها وحللها ورتبها ترتيبا من حيث الانتماء السياسي لأصحابها. وقد قسم مادة كتابه ثلاثة فصول وهي:

الفصل الأول: المذكرات السياسية وأهميتها في دراسة التاريخ.

الفصل الثاني: المذكرات الحزبية قبل ثورة 23 يوليو.

وقد اشتمل هذا الفصل خمسة مباحث وهي:

1- مذكرات الحزب الوطني.

2- مذكرات حزب الوفد.

3- مذكرات حزب الأحرار الدستوريين.

4- مذكرات الإخوان المسلمين.

5- مذكرات مصر الفتاة.

الفصل الثالث: المذكرات السياسية عن ثورة 23 يوليو وختم كتابه بملحين اثنين.

ملحق 1: مذكرات ناصر الدين النشاشيبي عن قصة مقتل الملك عبد الله.

ملحق 2: ثبت المذكرات غير الحزبية التي أمكن حصرها وأخيرا الحواشي.

وفي السياق نفسه نشير إلى دراسة الأستاذ: وناسة سياري تنقور الموسومة:

Dits et non dits dans les mémoires de quelques acteurs de la guerre d'Algérie

وهي دراسة تاريخية وسياسية مهمة حول عدد من محطات تاريخ الثورة الجزائرية اعتمادًا على عدد من مذكرات أبطال وزعماء الثورة الجزائرية، كما ختمت بحثها بقائمة غنية من حيث عدد المذكرات والسير الذاتية والشهادات لعديد كبير من هؤلاء الزعماء والأبطال والمؤرخين الذين رسموا المشهد التاريخي والسياسي الجزائري قبل وبعد الاستقلال. لقد جاءت هذه الدراسة العلمية والتاريخية المهمة والمفيدة ضمن كتاب جماعي موسوم Savoirs historiques au Maghreb construction et usage